الفصل الخامس

الطبيعة وأثرها فى تشكيل التجربة التأملية

تمهيد : الطبيعة عند العرب :

سحرت الطبيعة شعراء العربية من قديم الزمان وراعتهم مشاهدها وبهرتهم مظاهرها فحلق خيالهم فى أجوائها وانطلق بين جداولها ومروجها ، وجنح فوق رباها وخمائلها . مأخوذا بما أودعه الله فيها من جمال رائع وفتنة آسرة وحسن فياض ولكن كثيرا منهم كان يقف على ألوانها الزاهية ومفاتنها الحسية فلا يعدو أن يصف الألوان والزراكش ما قد يجد مثله فى ألوان الحلى وأصباغ الطنافس ، ونقوش الجدران وكأنه ينظر إلى دمية جامدة . صامتة ليس فيها حس ولا حياة . فإحساسه بها لا يتجاوز حدود الآذان والعيون والأنوف يشبه اللون باللون والطعم بالطعم ، والرائحة بالرائحة ، ونظرته تقوده إلى مظاهرها المختلفة يؤلف بين أشتات الحس بفكره وخياله (١).

وفى العصر الجاهلى نعثر على الكثير من ذلك . ويكفى مثال واحد وهو الشاعر "المرقش الأكبر" فهو يعطينا دليلا توضيحيا على طريقة تناولهم للطبيعة وتصويرهم لها حين قال :

الـــــدار قفـــــــر والرســـوم كمـــا ... رقـــش فـــى ظهـــر الأديـــم قلـــم

فلم يزد على أن اجتلب صورة مادية تطابق بالحس المنظر الذى أراد أن يصوره .

والشاعر العربى لم يعزل الإنسان عن الطبيعة بل وضعه أمامها .. ولكن على نحو من الفصل بين وجودين بحيث تظن العلاقة بينهما علاقة تقابل على نحو ما صور الشاعر الجاهلى "الأعشى" حبيبته" والطبيعة فى قوله :

ما روضـــة من ريـاض الحـزن معشبـــة ... خضـــراء جـاد عليهـا مسبـل هطـــل

يضاحـك الشمـس منهـا كوكـب شـــرق ... مـــؤزر بعميـــم النبـــت مكتهـــل

يومـــا بأطيـــب منهـــا نشـــر رائحـــة ... ولا بأحســـن منهـــا إذ دنـــا الأمـــل

وهذا النوع من الشعور الوصفى للطبيعة . إنما يعطينا أقرب ضروب الشعر الطبيعى تناولا ، وأيسرها أداء ، وأدناها إلى العضوية فهو لذلك كله أقلها حظا من الثراء فلا فرق بينه وبين آلة التصوير" (٢)

(١) د / حسن جاد : الشعر العربى فى المهجر ص ٢٣٥ .
(٢) د / حسين نصار : الطبيعة والشاعر العربى ص ١٥

وهناك ألوان أخرى من ألوان الوصف للطبيعة .. ومنها ما يلتقى مع اللون الأول ويبقى له ما ينفرد به عنه حيث " وقف الشاعر منهم أمام المنظر الطبيعى مشدوها ما ملكت عليه النشوة أقطار نفسه واستبد الإعجاب بوجدانه ولكنه لم يفقد صلته بالمنظر الطبيعى أمامه بل احتفظ بوعيه الكامل به . فالصورة المرئية عنده لا زالت تحتفظ بالأهمية التى كانت لها عند الشاعر .

وهذا الضرب من شعر الطبيعة نجد له لونين : لون يصف النبات وبخاصة الزهر ولون يصف السماء وما تشتمل عليه : وقد أكثر عبد الله بن المعتز من هذا الشعر الوصفى " ويحس قارىء هذا الشعر أنه أمام لوحة من الزخرفة الإسلامية .الأرابسك " تتألف من مجموعة من الرسوم الصغيرة المتشابهة لا يستطيع أن يميز عمل رسام من عمل رسام آخر لأن الواحد منهم يتخذ الوحدة التى صنعها السابق عليه . ثم يدخلها فى زخرفته الخاصة التى لا تكاد تختلف عن الزخرفة القديمة . (١)

وهناك لون آخر من الشعر الذى يصف الطبيعة . يعنى فيه الشاعر بالصورة التى تكونها مخيلته أكثر من عنايته بالصورة المرئية – ويحاول أن يمنحها مالم يمنحها الشاعر السابق يمنحها قدرا من الحياة أو بعض خصائص الأحياء .

مثل قول أحد الشعراء :

ومهد الينا فستقا غير مطبق ... به زاد احسانا على كل محسن
كأن انفتاقا منه دل على الذى ... به من كمين فى حشاه مضمن
ظماء من الأطيار حامت ففتحت ... مناقيرها ثم استعانت بألسن

فقد احتفظ الشاعر بصورة الفستق المفتق وأتى لها بما يشبهها ولكنه حين اختار الشبيه طائرا صغيرا والتقط من أعضائه منقاره وسط الضوء على لسانه البادى من شفتى المنقار اللذين باعد بينهما الظمأ . حين فعل ذلك أكسب صورته الجديدة حياة وعنوبة ومودة .

* *

وهناك لون رابع : يتحد فيه الشاعر بالطبيعة ويخلع عليها مشاعره تاره ، ويتوهم منها مشاعر يتحملها أونة أخرى . ويتأثر بها حتى تغلب عليه . وتصير مشاعره أيضا وخير مثال لهذا اللون قصيدة ابن الرومى التى مطلعها :

---

(١) السابق ص ٢٥ .

بكـــيت فلـــم تتـــــرك لعينيـــك مدمعـــا زمانـــا طـــوى شرخ الشباب فودعـــا (١)

فقد وصف فيها صيد الطير ووصف أدوات الصيد وأشفق على الطير الصريع وربط الشاعر بين مظاهر الطبيعة كلها فما أصاب الطير لحق بالشمس حتى صرعت معفرة على التراب وما شاع بين الناس من حسرة وبكاء لم يترك حتى الزهر فأبكاه .

ولا شك أن النظرة السابقة للطبيعة موشاة بالتأمل ، وانفعال صادق مع الطبيعة وامتزاج بها . يبطل دعاوى الذين يزعمون أن الشعر العربى كان جافا فقيرا فى وصفه للطبيعة ، والوصف عند المتنبى وابن خفاجه وذى الرمة له قيمته الفنية التى تؤكد الحقيقة السابقة .

واللون الخامس يعيش الشاعر فى الطبيعة التى يراها ويكثر التأمل فيها ويستنبطها فيدرك أنها ذات دلالة خلقية أو فكرية .. معينة .. فيستخرجها ويعنى بها ويغترف منها . والشاعر فى هذا الضرب أدى به تأمله إلى صورة فكرية تكشف عن شخصية الشاعر وتوجه حيـــاته وتفكيـــره " (٢)

ويقول د / حسين نصار ، وغريب أن نجد عند الهذيليين مالا نجد عند غيرهم من القبائل العربية من أمثلة هذا اللون من الشعر . فقد ألف الشاعر الهذلى أن يلجأ إلى الطبيعة فى الرثاء يستمد منها العزاء لأنه رآها تعانى معاناته .

وقصيدة أبى ذؤيب الهذلى التى يرثى فيها أبناءه تجمع كل ما يمكن أن يقال فى هذا الاتجاه .

واللون السادس : يتعدى فيه الشاعر كل ما سبق من التجسيد والتشخيص وخلع صفات الأحياء على الجمادات ويصور الطبيعة من خلال الرمز حيث يتوارى الشاعر خلف الطبيعة ليبث همومه وأحزانه ، أو غزله وأشواقه .

فالصورة التى نقرأها .. صورة أحد مناظر الطبيعة فى سماته البارزة والخفية وفى جوهرها صورة وجدانية رسمها الشاعر من مخزون مشاعره فهى صورة رمزية .

والمثال الواضح لهذا اللون من الشعر الرمزى : قول حميد بن ثور الهلالى يصف شجرة

---

(١) أنظر القصيدة : بديوان إبن الرومى ص ١٦٨ .

(٢) د / حسين نصار الطبيعة والشاعر العربى ص ٤٠ .

وهو يقصد حبيبته " أم عمرو " وذلك لأنه يروى أن الخليفة عمر بن الخطاب حرم الغزل بالنساء فاضطر الشاعر أن يتغزل بشجرة . فقد وقعت عيناه على هذه الشجرة وبهره جمالها فأخذت الصور تتعاقب أمام بصره فلا يميز ما كان منها للشجرة . وما كان للمرأة فقد تحولتا إلى جميل واحد فقال .

فيـــاطيب ريـاهـــا ويابـــرد ظلهـــــا ... اذا حـان من حامـــى النـهـــــار وذوق
وهـــل أنـــا ان عللـــت نفســـى بسـرحة ... مـــن السـرح مسـدود علـى طريـــق
حمـــى ظلهـا شكس الخليقـة خائـــف ... عليهـــا غـــرام الطائفـــين شفيـــق
فلا الظـل منـهـا بالضحـــى تستطيعـــه ... ولا الفـــىء منهـا بالعشـــىّ تـــذوق
وياوجـــد مشتـــاق أصيـــب فـــؤاده ... أخـــى شهـــوات بالعنـــاق نسيـــق
بأكثـــر مـــن وجدى على ظـل سرحـة ... مـــن السـرح اذ أضحـــى على رفيـــق
أبـــى اللـــه الا أن ســـرحة مالـــك ... علـــى كل أفـنـــان العضـــاه تـــذوق

وفى العصر الأندلسى ظلت الطبيعة مصدر متعة فحسب ولم تغد مثار تأمل واستغراق فى مظاهرها على النحو الصوفى الذى يعطينا الإنسان من خلال الطبيعة والكون من خلال الإنسان.

وكان شعراء الأندلس يمزجون وصف الطبيعة بالمدح وكثيرا ما يكون هذا حين يحدث الوصف بحضرة الممدوح أو حين يكون الموصوف مما يتصل به . وكثيرا ما كان الحاجب يحث على هذا الوصف فى مجلس من مجالسه أو روضة من رياضه . (١)

وبعد هذا العرض لموقف الشعر العربى من الطبيعة أستطيع أن أقول إن الشعر العربى لم يخل من النظرة التأملية للطبيعة . مزج فيها الطبيعة بالحب والفكر وشخصها وخلع عليها صفات الأحياء على نحو يقترب من رؤية الشعر المهجرى .

وليس من الإنصاف أن نقول كما قال أحد الباحثين أو كما يقول كثيرون منهم " إن الطبيعة عند الشاعر العربى لم تعد مثار تأمل واستغراق فى مظاهرها .

وتأمل الطبيعة والاستغراق فى شهودها على نحو صوفى هو الذى يعطينا الانسان من خلال الطبيعة والكون من خلال الإنسان وهو مالم نعهده فى الشعر العربى القديم على طول

(١) د / أحمد هيكل فى الأدب الأندلسى من الفتح إلى سقوط الخلافة ص ٢٨٣ .

أماده وضخامة ديوانه ..... فى صورته العامة

وهناك حقيقة نفسية هامة أرى أن أنوه بها هنا لكى لا نصب اتهاماتنا على الشعر العربى وهى أن هناك ثلاث مراحل للعلاقة بين الأشياء . تتمثل فى :

أ - الإشراف ب - الاشتراك جـ - الفناء الوجدانى

وهى تتدرج تدرجا زمنيا على مستوى الفرد والجماعة . وغالبا ما يحكم هذا التدرج العصر نفسه وبخاصة فى التقاليد الأدبية التى تحكم أو تتحكم فى كل جيل فنحن نعرف أن من مقومات الأديب منتجا كان ناقدا أن يقوى خياله ويتسع مداه بحيث يمكنه من أن يضع نفسه موضع من يصف الأشخاص أو ينتقل بخياله إلى المنظر الذى يصور ، أو ينقل المنظر إليه ، وبذلك يستطيع أن يصف أو يصور وكأن نفسه اتصلت بما يصف أو بما يصور ولذلك ثلاث مراتب :

الأولى : مرتبة الإشراف . وفيها يتخيل الأديب نفسه مشرفا فقط ومطلعا على ما يحدث : وهذه أقل درجات التخيل ويتبعها وجدان مناسب لها فى القوة .

والثانية : مرتبة الاشتراك أو الاندماج وهى أعلى منزلة من الأولى من حيث التخيل والوجدان ، وفيها يتخيل الشاعر مثلا أنه يشارك من يتحدث عنه مشاركة فعلية فى أعماله ووجدانه .

والثالثة : مرتبة الاتحاد أو الفناء الوجدانى . وهو أعلى مراتب امتداد الخيال والوجدان وفيها لا يتخيل المتخيل أنه مشرف على العمل أو مشترك فى الحادث ولكنه ينسى وجوده ، ويلغى كيانه الخاص ، ويتخيل أنه هو الفاعل نفسه (١) . فتطور العصر . وتطور الوجدان كان رهنا لتطور الخيال . وبخاصة فى مجال الأدب وتقول إحدى الكاتبات الإنجليزيات هناك ساعات من الزمن أتخيل فيها نفسى وقد خلعت لباسها ولبست لباسا آخر . أو أتجرد من نفسى وأسكن نباتا أو أشعر أنى الحشيش النابت على سطح الأرض ، أو أنى غصن متدل من شجرة أو سحابة تسبح فى الفضاء ، أو أنى طائر يجرى ويطير ويعوم ، وينشر جناحيه فى أشعة الشمس ، أو أنى أرقد تحت أوراق

(١) حامد عبد القادر : دراسات فى علم النفس الأدبى ص ٦٢ - ٦٣ .

الشجر " أو أزحف على الأرض كما تزحف السحالى .

أليست الكلمات السابقة هى نفسها الكلمات التى عبر بها القروى عن شعوره تجاه الطبيعة فمصدرها واحد وإن لم يلتق الأديبان ، وهو الفناء الوجدانى فى مشاهد الطبيعة ومجاليها يقول : القروى " وقد يتجسم شعورى بصلة القربى بينى وبين هذه الأكوان فأنعطف على الشجرة أعانقها ، والصخرة أضمها ، والزهرة أناغيها ، والمرجة أتقلب عليها وأمد ذراعى إلى السماء أحييها ،وأبعث إلى الشمس بقبلاتى على أطراف بنانى (١)

واعتمد المهجريون فى تصويرهم للطبيعة والالتحام بها والفناء فيها على وسائل فنية كثيرة وعلى طرائق تعبيرية منها :

أ - التصوير الأسطورى :

وديوان " أحلام الراعى " لإلياس فرحات ، وملحمة " عبقر " لشفيق معلوف من أكبر الظواهر التى تؤكد ذلك .

ب - القصة الشعرية " الواقعية والرمزية " ومنها :

الدوحة الساقطة للقروى . والراهبة لإلياس فرحات . والعليقة لأبى ماضى . والناسكة له أيضا . وكذلك الغدير الطموح .

جـ - القصة النثرية ومنها :

البنفسجة الطموح لجبران ، والصنوبرات الثلاث لشفيق معلوف .

د - المقالة القصيرة :

وكتاب صور قروية ، وريفيات نموذج واضح لذلك .

هـ - الكتاب الكامل :

الذى يتضمن فلسفة الأديب ونظرته فى العلاقة بين الطبيعة والإنسان وخير نموذج لذلك كتاب حديقة النبى لجبران .

---

(١) القروى : مقدمة ديوانه جـ١ ص ٢٤ .

وفى المضمون " انطلق الشعراء والأدباء المهجريون مع الطبيعة واندمجوا فيها اندماجا كليا . واتخذت الطبيعة عندهم الروافد الآتية ، حيث صبت فى نفوسهم وملأتهم بنشوة الحياة والتأمل .

أولا - الطبيعة مصدر لوحدة الوجود :

والإحساس بوحدة الوجود يشيع عند الأدباء والشعراء المهجريين حيث تمثلوه فى كل ما رأوه فالإنسان يندمج فى الطبيعة ويفكر من خلالها . وتكشف مشاهدها عن أفراحه وأتراحه ، ثم هى تحيا من خلاله وتشارك الإنسان . وتكلمه وتملى عليه ، وتحضنه وتدب فيه حتى ليحار الشاعر من وهن الحدود الرهيفة التى بينه وبين نفسه وبين مظاهر الطبيعة .

ونعيمه فى قصيدته " من أنت يانفسى " (١) يصور لنا هذا الموقف من الطبيعة حيث يلتحم مع نفسه بمظاهرها التحاما كاملا ، فيخاطب نفسه حين يراها عاشقة للموج مترصدة البرق ، مصغية للرعد ، هامسة للريح ذائبة فى ضياء الفجر ، غارقة فى سحر الألحان :

هـل مـن الأمـواج جئـت ؟
هـل مـن البـرق انفصلـت ؟
أم مـع الرعـد انحـدرت ؟
هـل مـن الـريح ولـدت ؟
هـل مـن الفجـر انبثقـت ؟
هـل مـن الشمـس هبطـت ؟
هـل مـن الالحـان أنـت ؟

ثم فى النهاية يصور عقيدته " وحدانية الوجود " من خلال الطبيعة ويقول لنفسه .

إيه نفسـى ! أنت لحـن فى قد رنّ صـداه
وقعتـك يدفنـان خفـى لا أراه
أنـت ريـح . ونسيـم . أنـت موج أنت بـحر
أنـت برق . أنت رعد . أنت ليـل ، أنت فـجر
أنـت فيـض مـن الـه

(١) م . نعيمة همس الجفون ص ١٦ - ٢١ .

وجبران يشتق من مظاهر الطبيعة مظاهر مختلفة كلها تدعى أن الوجود يكمن فيها . فالغاب يدعى أن العزم له ، والصخر يدعى أنه الرمز إلى يوم الحساب والريح تفصل بين السديم والسماء ، والنهر يروى ظمأ الأرض ، والطود يقول إننى خالد إلى الأبد والفكر يقول ليس فى عالم غيرى من ملك .

والبحر يعلق فى نفسه على كل هذه الادعاءات معلنا أنه بؤرة الوجود فيقول العزم لى ، والرمز لى ، والريح لى ، والنهر لى ، والطود لى ، والكل لى (١) " وإيليا أبى ماضى " فى الطلاسم وهو يناجى البحر يوظف الطبيعة فى توضيح إيمانه بهذا المعتقد الذى يلتقى فيه مع جبران ونعيمه فيقول :

ترسل السحب فتسقي أرضنا والشجرا
قد أكلناك وقلنا قد أكلنا الثمرا
قد شربناك وقلنا قد شربنا المطرا (٢)

* *

ثانيا : كانت الطبيعة ينبوع إلهام عند الشعراء والأدباء المهجريين .

والقروى فى قصيدته " الأمى " يجعل من الطبيعة كتابا مفتوحا يقرأه الناس فهى مصدر للمعرفة ومصباح يضيء الطريق . ويدير الشاعر حوارا بين أمى ومثقف من " خريجى الجامعات " وهو جاهل بسحر الطبيعة ولا يعى شيئا من مفاتنها والطبيعة عنده ديوان شعر الأبدية يقول :

جلس الفلاح فى خيمته ذات عشية
وأجال الطرف فى ديوان شعر الأبدية
جدول يجرى كذوب الماس ما بين يديه
والندى والعشب والزهر توشى ضفتيه
ونجوم الليل يوقدن سراجا فسراجا
يتغامزن ويضحكن ويرقصن ابتهاجا
فدنا منه فتى خريج احدى الجامعات
غافلا لم يعر الشاعر والشعر التفات

(١) جبران : البدائع والطرائف ص ١٠٤ .
(٢) إيليا أبو ماضى : الجداول ص ١٠٨ .

قـال يا فـلاح قل لـى هل تعلمت الهجـــاء
قـال ياليـت وعينـــاه تـــرودان السمـــاء
قـال يامسكـين أفنيـت بداء الجهل عمـــرك
لـــو تعلمت لخلدت مع الأعـلام ذكـــرك

* *

ومضـــى المبـــدع يجلـــو فنـــه نظمـــا ونثـــرا
ومضـــى الأستـــاذ يهـــذى ومضـــى الأمـــى يقـــرا(١)

وبرغم أن القصيدة ، هدفها مباشر لا ترقى إلى المستوى الفنى لشعر المهجر فى الطبيعة ومضمونها وإن كان يرفع من قدر الطبيعة لكنه لا يواكب تيار التقدم العلمى فالعلم هو سر الحركة الدائمة فى الكون . وكيف للأمى أن يكون مبدعا وله فن يجلوه والفن نظم ونثر . لاشك أن هذا يتعارض مع أميته ، ويمكن أن تكون لديه أحاسيس وجدانية ثرة محلقة ولكنه لا يستطيع أن يعبر عنها .

وفى مذكرات الأرقش " يقول نعيمه على لسان الأرقش " أنا والنجوم " تلميذ وأستاذ . فيها رأيت مجد الله ، ومنها عرفت عظمتى كصورة الله ومثاله وحقارتى كتراب .

أنا والنجوم عالمان لا متناهيان . والعالمان يؤلفان عالما واحدا لا متناهيا هو الأرقش ذلك الإنسان الصغير المجهول الذى له وجه كرقعة من الخشب نخرها السوس أما الناس فلا يفهمون أن من ينظر إلى النجوم يجب أن ينظر إليها بخشوع وصمت . (٢)

وأبو ماضى فى قصيدته كم تشتكى " يرسم لوحه للطبيعة الفاتنة التى تنزع التشاؤم من قلب الإنسان يقول :

انظـر فمـا زالـت تطل مـن الثـــرى صـــور تكـــاد لحسنـــهـا تتكلـــم
مابـــين أشجـــار كـــأن غصـــونـــهـــا أنا تصـــفـــق تـــــارة وتســـلـــم
وعيـــون مـــاء دافقـــات فـــى الثـــرى تشفـــى السقـــيـــم كأنمـا هى زمـــزم
صـــور وأيـــات تفيـــض بشاشـــــة حتـــى كأن اللـــه فيهـــا يبســـم
فامـــش بعقـــلك فوقهـــا متفهمـــا إن الملاحـــة ملـــك مـن يتفهـــم (٣)

(١) القروى : ديوانه جـ٢ ص ٨٥٤ .
(٢) م . نعيمه مذكرات الأرقش ص ٢٢ .
(٣) أبو ماضى الجداول ص ١١٩ .

ثالثا : الطبيعة رمز للتعبير عن توق الإنسان للحرية :

واتخذ المهجريون من الطبيعة أداة لتصوير أزمة نفوسهم وتشوقها للحرية فأجروا على لسانها مشاعرهم ونفسوا عن رغباتهم المكبوتة واحسوا من خلالها بمشكلات المجتمع " وقصيدة" البلبل الساكت " (١) للقروى التى كتبها قبل أن يهاجر تعبر عن هذه الظاهرة حيث كان يعانى من عذاب القيود التى فرضها الاستعمار التركى على المناضلين من أبناء العروبة فى سوريا ولبنان وفسلطين وهى قصة ليلة مطيرة وبلبل حائر يطلب مأوى . وفى كل لمحة من هذه القصيدة نجد عذاب القروى النفسى ونجد غوائل المستعمرين وعواصف الحكم التركى تطارد أصحاب الكلمة ، وتكتم أفواه الأحرار ، والبلبل الساكت هنا هو القروى نفسه في فترة من حياته ذاق فيها الهوان. والقصيدة تتكون من سبع مقاطع . يصور المقطع الأول حيرة البلبل وتوهانه فى مسائه المدلهم ، والغيوم حواليه تحجب كل شىء ، وفى الثانى صورة فوتوغرافية لمأساة البلبل ثم أمله فى الإنسان يقول :

نبذته رياضه فتعلل بحمانا عن الرياض وأمل

أن يكون الإنسان أهون شرًا

وفى الثانى والثالث : يصور الشاعر رجوع البلبل ووجله فى أول الأمر . ثم عناية الشاعر به وعطفه عليه ويقول :

بلبل الروض هاك دفئا وقوتا بلبل الروض لاتخف أن تموتا

بلبل الروض ماخلقت صموتا بلبل الروض قد أطلت السكوتا

عد فغرد لا تخش ياطير شرا

وفى المقطع الرابع والخامس والسادس : يبين بهجة الشاعر مع البلبل بالحرية . والحب الذى يجمع بينهما .

يا كريما عاملته بالكرامة صن عهود الرشيد وارع ذمامه

هدأ الطبع رافقتك السلامة حبذا لو رغبت معنا الإقامة

إنما الحر لايقيد حرا

---

(١) القروى ديوانه جـ ١ ص ٦٦ .

رابعا : الطبيعة وحدة لاتتجزأ فدستورها وينبوعها واحد مهما تعددت الروافد

وكانت الطبيعة عند المهجريين بمثابة المرائى المتعددة للشيء الواحد بينها من الوشائج وصلات القربى مابين الأسرة الواحدة. فتقدست الشوكة كما تقدست الزهرة ، وبورك الخريف والذبول ، كما بورك الربيع والازدهار ، وعشقت هدأة الليل كما عشقت جلوة الضحى ، ونعمت روح الشاعر بالنسمة الوادعة كما صفقت للعاصفة الراعدة .

وفضلا عن إحساسهم بوحدة الطبيعة أحسوا بوحدة الموجودات ، فالإنسان أخ للأشجار والأنهار أيضا وابن من أبناء الطبيعة التى تحنو عليه فى أمومة رءوم . ويحس حين يستلم إلى ذراعيها المرحبتين وصدرها الرحيب أنه يولد من جديد ، وتعود إليه طفولته الروحية وبراءته النفسية. (١)

وبدافع الإحساس بالاتحاد التام بينهم وبين الطبيعة يصور " أمين الريحانى " الطبيعة بالأم الرءوم بين يديها ينثر أفراحه ويبث أشجانه ، وفى عينيها يسافر إلى غده ويقرأ المجهول ويستنطقها بمكنون صوره وخبايا ضميره ، وفى مقطوعة " معبد الوادى " ايه أمى الطبيعة " جئت أجدد معك آمال الحياة وسرورها. جئت أجدد عهدى وأمانى عهدى مع كلأ الحقول وزهورها . وقفت على ضريح الشتاء فشاهدت هناك مشهدا جليلا . شاهدت ربة الربيع تقبل جبين أبيها فيثور الأقحوان تحت شفتيها رأيتها تكتب بدموعها سفر الخلود فيردد العصفور في الجلمود . أرانى هنا فى بيتى بل فى بيت الله " .

ونعيمه فى كتابه " زاد المعاد " يخصص للطبيعة مقاله عنوانها " دستور الطبيعة " يقول " لو فكرتم بأن الطبيعة ما كانت كما هى لو لم يكن أقل مافيها كما هو : وبأن العناصر الأربعة لاتجهد ذاتها فى تكوين زئبقة أكثر مما تجهد ذاتها في تكوين شوكة . وأن القوة المبدعة لو كانت تؤثر البلبل على الغراب لما خلقت يوما غرابا . (٢)

وفى مذكرات الأرقش يحارب نعيمه فكرة سيادة الإنسان على الطبيعة لأن الطبيعة فى معتقده مرآة الإنسان يقول :

---

(١) أنس داود : الطبيعة فى شعر المهجر ص ٣٤ .
(٢) م . نعيمة زاد المعاد ص ٩٨ .

" وما الطبيعة فى الواقع سوى مرآة الإنسان . فالغازها ، وأسرارها ، وخيرها وشرها وجمالها ليست سوى انعكاسات ألغازه وأسراره وخيره وشره وجماله وقباحته كما يكون الانسان تكون الطبيعة من حوله ..... فمفتاح الطبيعة ليس فى الطبيعة عينها بل فى الإنسان نفسه وذلك المفتاح هو المعرفة .

من شاء أن يعرف الطبيعة فليعرف نفسه أولا – ومن شاء أن يكون سيد الطبيعة فليكن سيد نفسه . (١)

* *

خامسا : الطبيعة واحة لأفراح الروح وطلاقة النفس وبهجة الطفولة :

تتمثل هذه الظاهرة فى قصيدة " صدى الأجراس " حيث يرقص الشاعر على نغمات الطبيعة الساحرة . فالشمس إشراقها عيد وهو يفر إلى الغاب بينما غيره يسير إلى القداس ثم يغنى فى سعادة دائمة .

أغصـــان الغـــاب تلاعبنـــــا
وهـــــوام الغـــاب يداعبنـــــا
وصخـــــور الـــوادى تدعونـــــا
وصـــــدى الأجـراس يعاتبنـــــا

فالغاب هنا ملجأ الشاعر الهارب من زيف الطقوس الدينية ، وهو لايعبأ بعتاب الأجراس وهنا الاندماج الكامل فى الطبيعة . فالأغصان تلاعب الشاعر فهم أطفال بشرية . وحتى الهوام تداعب ويضفى عليها الشاعر ظلا خفيفا .. هذه الصور لم يتكلفها الشاعر ولكنها تتفجر من اللاوعي لأنه يشعر أنه لايفترق عنها . ويبلغ الفناء أقصى مداه حين يتخذ الشاعر من أفراد عائلة الطبيعة رعايا لمملكته . كرسيه كتف النهر . وحارساه العوسج والزهر وهل يخفى الدلال الذى يحسه الشاعر وهو يتأرجح فوق كتف النهر ؟ وهل هناك عز أعظم من الحرية ؟ يقول الشاعر :

فجلســـت علـــى كتـــف الـنـهـــــر ... مابـــين العوســـــج والـــزهـــــــر
العالـــم مملكـتـــى ... وأنـــــــا ... سلطـــــان العالـــــم والدهـــــــر

(١) ميخائيل نعيمة : مذكرات الأرقش ص ٨٠ .

وبهذا تنمحى الحدود بين الشاعر والطبيعة ، بين الذات والكون ، وتعبر القصيدة عن تعرى الذات الإنسانية أمام الطبيعة . وهو فى هذه اللحظات الراقصة مع الطبيعة تتكشف أعماقه عن دخائلها وتبوح ذاته بما يرهقها فينتفض الشك وأنصاره ، وآلام العيش وأوزاره ، ليعيد تشكيل الطبيعة فى عينيه من جديد يقول :

قلبا تتقطع أوتاره
وشبابا يجمعها أبدا أبدا
ويعقدها عقدا عقدا
وعليها يعزف ألحانا
لاتطرب فى الدنيا أحدا

وجبران يلتقى مع نعيمه فى هذه النظرة فى قصيدته " المواكب " وأغنية الليل يقول :

فتعالى يا ابنة الحقل ، نزور كرم العشاق
علنا نطفى بنياك العصير حرقة الأشواق

* *

اسمعى البلبل مابين الحقول يسكب الالحان
فى فضاء نفخت فيه التلول نسمة الريحان (١)

ونسيب عريضه يرى الطبيعة كذلك مجالا للتعرى فيقول :

يا غاب جئناك للتعرى أنا ونفسى ولا حرام
فليذع الغصن ما يراه منا اذا أحسن الكلام (٢)

سادسا : الطبيعة كتاب مفتوح نتعلم منه المبادىء والمثل :

واتخذ المهجريون من الطبيعة معلما مثاليا يعلمهم مبادىء الإيثار والإخاء والحب ،

(١) جبران البدائع والطرائف ص ١٠٣
(٢) نصيب عريضه : الأرواح الحائرة ص ٨٢ .

والعدالة ، والمساواة .

فنسيب عريضه يرى فيها قدوة للإيثار والوفاء وعدم الأنانية . فالبحر لا يعرف الأنانية والضحى يعلمنا الوفاء ، والشمس تعلمنا العطاء والسنا ويطلب منا أن نتعلم منهم هذه المثل فيقول :

كـــن مثل بحر زاخـــر مرجـــــع ... للسحـــب ماتسكبـــه الأنـهـــــر
كـــــن كالضحـــى يذهـــب فـــى دورة ... تذكـــــره الآمـــــاد والأعصـــــر
كـــــن مثـــل شمـــس منحـت نورهـا ... لكـــل مخلـــــوق ولا تشكـــــر (١)

وفيليب لطف الله . وهو من شعراء المهجر الجنوبى ورئيس جامعة القلم بسان باولو يقول:

مـــــن نبـــع صنـــين من أفواه كوثـــره ... قد استـقيتُ رحيـق الشعـر والكلـــم
ومـــن علاه أتانـــى الوحـــى منهمـــرا ... كالغيـث يهطـــل كالآيـات والحكـــم
الجـــو صـــاف ولاغيـــم يكـــــدره ... والشمـــس تنشر خيط الحب فـــى الألـم
والمـــــاء أغنيـــة الينبـــوع تسمعنـــا ... لحنا فريدا وهمـــس الحـــب فى النغـــم
والنـــاس تمـــرح فى حقـــل وفى عمـــل ... والعيـــش يحلو لراعى العنـز والغنـــم(٢)

ويبدو الشاعر أكثر تأثيرا فى النفس من نسيب عريضه . فنسيب شغلته الخطابية المباشرة فجاء أسلوبه وعظا جافا . وعادة ما تأنف النفس من أسلوب الأمر أيا كان هدفه لكن فيليب من خلال وصفه للطبيعة أعطانا ما يريد قوله فقدرنا وقدر الطبيعة وقدر فنه فمن القطعة السابقة نجنى المعانى العذاب التى تسمو بالنفس وهى : -

حب الوطن فى البيت الأول ، والعطاء بلا حدود فى البيت الثاني ، والصفاء النفسى والحب الذى يشمل الكون بأسره فى البيت الثالث ، والترفيه عن النفس فى البيت الرابع واحترام قيمة العمل والعمال والقناعة فى البيت السادس .

ألا ترى أن الشاعر عرض أمامنا اللوحة لنقرأ بدون معلم ولا واعظ . بأسلوب فيه جزالة الشعر العربى القديم . وثراء الوجدان الفنى الحديث . ولعل فيليب لم ينل حظه من الدراسة لكن

(١) السابق ص ١٧٣ .
(٢) مجلة الأديب – يناير أكتوبر ١٩٧٧ مقال :فيليب لطف الله شاعرا وإنسانا وحيد الدين بهاء الدين ص٣٣.

آفاقه الفنية غنية بالغناء العميق البعيد الذى يهمس ولايصرخ ، يلمح ولايصرح . يقترب إليك فى رفق لترى نفسك محاطا بعالمه الفنى الأخاذ وفى وصفه للشتاء .. يتخذه رمزا مزدوجا للحياة والموت فهو وان قضى على الثمر وأسقط الأوراق همزة الوصل بين الماضى والآتى . حيث تكمل دورة الحياة فيقول :

جـاء الشتـاء فـلا زهـر ولاثمـر ... وفـى عواصفـه الأيـات والعبـر
يقضـى على باسقـات الروض ان هـرمت ... وفـى البريـة يقضـى حكمه القـدر
يمضـى القـديم ويبـقـى بعـده خلفـا ... يجـدد النشىء فيـه الكـون والبشـر
فمـا الحيـاة سـوى أت ومرتحـل ... والليـل مهمـا دجـا فى قلبـه سحـر(١)

وإيليا أبو ماضي . في عديد من قصائده يتلقى من الطبيعة معتقده ومثله الروحية والاجتماعية وهو يعبر عن هذا بصدق عفوى قائلا :

وشاهـدت كيف النـهـر يبـذل مـاءه ... فلا يبتغـى شكرا ، ولا يدعـى فضـلا
وكيـف يزيـن الطـل وردا وعوسجـا ... وكيـف يروى العارض الوعر والسهـلا
وكيـف تغـذى الأرض الأم نبتهـا ... وأقبحـه شكـلا كأحسنـه شكـلا
فأصبـح رأيـى فـى الحيـاة كرأيهـا ... وأصبحت لـى ديـن سـوى مذهبى قبـلا
وإن لـم أكـن كالروض والنجـم والحيـا ... فحسبـى اعتقـادى أن خطتها المثلى (٢)

وانطلاقا من مفهومه هذا للطبيعة يحاول قتل نزعة الغرور فى نفس الإنسان فى قصيدته " الشاعر والسلطان الجائر " وذلك من خلال مشاهد الطبيعة ومرائيها ويقيم حجته مستندا إلى قوانين الطبيعة .

ويسند هذه المهمة إلى الشاعر ليوحى بوظيفة الشعر والشاعر فى الاستشهاد من أجل إعلاء قيمة الكلمة وإرساء مبادىء الحق والعدل والمساواة ، ومن فى نظر الفن الصادق والضمير اليقظ غير الشاعر جدير بهذه المهمة ؟

يقول الشاعر للسلطان الجائر :

---

(١) السابق ص ٣٥ .

(٢) انظر نص القصيدة كاملا بديوان : الخمائل من ٧٩ – ٨٦

ولقد نقلت لنملة ماتدعي ... فتعجبت مما حكيت كثيرا
قالت صديقك مايكون ؟ اقشعما ... أم أرقما ؟ أم ضيغما هيصورا
أيحوك مثل العنكبوت بيوته ... حوكا ويبني كالنسور وكورا
هل يملأ الأغوار تبرا كالضحى ... ويرد كالغيث الموات نضيرا
أيلف كالليل الأباطح والربى ... والمنزل المعمور والمهجورا
فأجبتها كلا : فقالت سمه ... في غير خوف كائنا مغرورا (١)

وتسرى هذه الروح فى قصيدة " الطين " فهى صوت الشاعر الثرى بالحكمة المندى بسحر الطبيعة ينطلق فى تموجات غاضبة لتبتلع نزعة الغرور التى طافت بخيال الطين المغرور " واختيار كلمه " الطين " لايدل على التحقير بمقدار ما يدل على المساواة فالناس مخلوقون من الطين الكريم وليس الطين الحقير " ويبدو أن الشاعر فى غمرة انفعاله نسى أن الناس كلهم من الطين . كلكم لآدم وآدم من تراب " حديث شريف " ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين " قرآن كريم " .

* *

ومن قصيدته " الجدول الطروب " (٢) يأخذ من الجدول درسا فى بذل العطاء بدون ضجيج فالصمت دليل الإخلاص فى العمل . يقول عن الجدول .

ولقد سمعت الطير تدعوه الحبيب الأكبرا
فوقفت أرمقه وأسأل حائرا مستفسرا
ماحبب الأطيار والأشجار فيه ياترى ؟
أحصاه ؟ ان البحر يحوى فى حشاه جوهرا
أم ماؤه ؟ انى رأيت السيل منه أغزرا
أو طهره ؟ انى وجدت الطل منه أطهرا
ما السر فى هذى ولافى كونه يسقى الثرى
بل كونه يسدى الجميل ويستحى أن يظهرا

(١) أبو ماضى الخمائل : ص ١٤ .
(٢) أنظر القصيدة وهى غير منشورة بدواوين إيليا أبى ماضى فى كتاب . إيليا أبو ماضى دراسات عنه وعن أشعاره المجهوله ص ٢٦٦ " جورج ديمترى سليم .

وهذه قيمةاجتماعية سامية . تغرس الحب فى النفوس ، وتصل مابين القلوب . وتذكرنا بقصيدة " الحجر الصغير " فى أهمية الفرد مهما قل شأنه ، لكن الحجر الصغير كان تناسيه سببا فى الهلاك لكنما الجدول الطروب يعطى بلا حدود وهو صامت ، وفى كلمة الطروب . إيحاء بالتفاؤل الذى انتهجه أبو ماضى فى حياته .

وكما يتعلم أبو ماضى من الطبيعة المبادىء التى ينشر بها الخير بين الناس يتعلم منها كيفية الدفاع عن النفس الذى يصل الى حد الهجاء . وهذه نزعة جديدة نراها فى شعر أبى ماضى . فهو فى قصيدته " النابح العاوى "(١) يخاطب فى عنف من استغل حلمه وحاول إيذاءه وظن أن ذاك الحلم ضعف منه ، يخاطب ذلك الإنسان بأسلوب لم تعهده فى معجم أبى ماضى يقول:

ياأيهـــا النابـح العـــاوى بلاسـبـب	أمـــا لنفســك نوودٌ فينهـــاهـــــا
نحـــن النجـــوم التـــى تهـدى أشعتهـــا	من ضل بل نحـن أسماهـــا وأسنـــاها
لكننـــا نعتـــدى ان ثـــاره ثائرنـــا	نياز كاتتقـــى الدنيـــا شظاياهـــا
هل يزعـــج الشهـــب نباح بـــلا ذنـــب	وهل يعـــوق فـــى الأفلاك مسراهـــا
اذا سكتنـــا فان الليـــث يأنـــف مـــن	قتل البعوضـــة مهمـــا طـال قرناهـــا
اذا نظرنـــا الـــى الجعـــلان سارحـــة	ولـــم نطأهـــا فاناقـــد حقـرناهـــا
وفـى الحدائـــق ذات الزهـــر مشغلـــة	عن رؤيـــة الجعـــل يمشى فى زواياهـــا

وعلق أحد القراء على هذه القصيدة التى لم يشأ أبو ماضى أن يكتب اسمه ساعة نشرها فقال : " على أنى أقدر أن أقول إن القصيدة التى ظهرت فى " المرآة " منذ عهد قريب بلا توقيع سيكون حظها من الخلود كبيرا لما فيها من السلاسة والرقة ، وأداء المعنى المبتكر بلا تكلف ولا تعسف " (٢)

ولم يقصر أبو ماضى دروسه من الطبيعة على اللحظات السعيدة المشرقة بل وظفها فى الرثاء واتكأ على مظاهرها وقاموسها ليثرى بها مشاعره فى لحظات الوداع : ففى توديع أمين الريحانى نراه يخاطبه فى محبة وأسى قائلا :

---

(١) السابق ص ٢٦١ .

(٢) المصدر السابق ص ١٨٩ .

يا قاصد البلد البعيد ترفقا ... مادام هذا الدهر لا يترفق
ان كان بعض الود يخلقه النوى ... وبيته فوادنا لايخلق
فإذا رأيت البحر يعلو موجه ... فاعلم بان دموعنا تتدفق
واذا رأيت النجم ينظر ساهيا ... فاعلم بأنافى النجوم نحدق
واذا سمعت الطير تهتف فى الضحى ... فاعلم بأن قلوبنا تتشوق (١)

سابعا : الطبيعة تثرى الفكر ويناقش الإنسان من خلالها قضايا الحياة والكون:

واتخذ المهجريون من الطبيعة مجالا لطرح الشكوك ومناقشة الإشكالات الحياتية والكونية " وهو فرق جوهرى بينهم وبين الرومانتيكيين الأوروبيين " إذ أن هؤلاء لم يكونوا يندمجون فى الطبيعة ليفكروا . ليستخلصوا الحجج أو يحلوا مشكلات " كلا " ولكن ليحلموا ويستسلموا لمشاعرهم (٢)

أما شعر المهجر فيحفل بالموقفين معا . موقف الاستسلام للأحلام عبْر مشاهد الطبيعة وموقف التفكير من خلالها . فى مشكلات الحياة والكون .(٣)

وديوان أحلام الراعى لإلياس فرحات ، وعبقر لشفيق معلوف ، وطلاسم أبى ماضى ، والأوتار المتقطعة لرياض معلوف ، وكثير من قصائد همس الجفون ومقالات جبران وخواطره ، ورباعيات القروى ، كلها نماذج تؤكد هذه الظاهرة حيث نراهم يأخذون البحر – تارة رمزا للثنائية التى يعيشها الكون وتدمى النفس البشرية وتارة أخرى يتخذه أبو ماضى رمزا أو دليلا على الفناء فالمعالك من حوله فنيت وجبران يتخذه رمزا لنشأة الوجود وبقائه .

ومن خلال الدودة يفتش نعيمه عن نفسه الحائرة .. ويقدم أبو ماضى فى كثير من قصائده إيمانه بعقيدة التقمص والتناسخ فيقول : من قصيدته " الناسكة" بعد أن يلتقط الحب ويأكل السنبل فى ساعة الغروب .

ماالحب يا هذا ولا السنبل ... ماتاكل النار وما تاكل
وانما أسلافك الأصفياء. (٤)

---

(١) السابق ص ٢٤٢ .
(٢) د / محمد غنيمى هلال . الرومانتيكية ص ١٤٠ .
(٣) د / أنس داود : الطبيعة فى شعر المهجر ص ٤٦ .
(٤) أبو ماضى : الجداول ص ٧٩ .

والشاعر رياض المعلوف يقول عن الطبيعة مجيبا عن سؤال وجهته إليه : الطبيعة هى هبة الله التى أنعم بها على بنى البشر .. لوجه الله !!

وهى أحن عليك من الأم التى ولدتك للأوصاب !

أجل إذا اتخذناها من الناحية الإنسانية فلكل مخلوق بشرى طبيعته الخاصة ومزاجه لذلك قيل غلب الطبع التطبع ! وهى جذوره العميقة التي يتطبع بها .. وطبيعة الأشياء هى طابعها الذى تتسم به !!

ومن لطائف طبيعة الكون الأزاهير والأشجار والأثمار والأطيار .. والأنهار والجبال والوهاد ، والليل والنهار، والأقمار والنجوم والغيوم ! والمناظر الخلابة والألوان الزاهية التى تأنس بها العين ، وينتعش بها القلب ! (١)

ويتخذ رياض المعلوف من فصل الخريف وحيا للتعبير عن فلسفته فى الموت فيقول من قصيدته " غمائم الخريف" (٢)

وريقات تبللها الدموع ... فأين الصيف بل أين الربيع ؟
يبعثرها الهواء على الروابى ... ولا يخشى أتبقى أم تضيع ؟
وتصرعها الرياح وكم تبدى ... بكل وريقة يوم صريع ؟

ومن خلال الطبيعة وعرض مشاهدها عبر الشاعر عن إيمانه بالله . فيقول من قصيدته " لبنان علمنى القريض " :(٣)

فهنا الجداول دمدمت ... وهناك سجعة طائر
والنور يضحك ثم يعـ ... ـبس فوق ظل عابر
صور تمر على العيو ... ن وتستبد بنا ظرى
فكأنها معزوفة ... عزفت بأنمل ماهر
أو تلك لوحات من الفـ ... ـن الجميل الباهر
من ريشة الله العظيـ ... ـم العبقرى النادر

(١) من رسالة خاصة إلى بعث بها الشاعر فى ١٩ من يناير سنه ١٩٧٨ م .
(٢) رياض معلوف : غمائم الخريف : ص ٩ .
(٣) السابق ص ٣٥ .

ثامنا : الطبيعة سرقت الأضواء من المدينة وجذبت قلوب الشعراء إليها :

وذلك لما فى المدينة من مواصفات اجتماعية يسمها التكلف وترسم حدودها المنافع والأغراض الشخصية . فضلا عن وجودها سدا أمام انطلاقات الخيال وانفساحات التأمل .. وأبو ماضى فى قصيدته " فى القفر " (١) يقول فى بدايتها مقررا هذه الحقيقة :

سئمت نفسى الحياة مع الناس وملت حتى من الأحباب
وتمشت فيها الملالة حتى ضجرت من طعامهم والشراب

ويهزأ بقيم المدينة الزائفة . ويهتك براقعها القبيحة ويصفها قائلا :

صغرت حكمه الشيوخ لديها واستخفت بكل ما للشباب

ويتخذ من أشخاص الطبيعة رفاقا له فى رحلة حياته المضنية :

وليك الليل راهبى وشموعى الشهب والأرض كلها محرابى
وصلاتى الذى تقول السواقى وغنائى صوت الصبا فى الغاب

ولكنه فى النهاية يحس أن المدينة تشده بأغلالها ، ومثلما مل الحياة فى المدينة مل صمت الغاب الموحش :

انما نفسى التى ملت العمران ملت فى الغاب صمت الغاب
خلت أنى فى القفر أصبحت وحدى فاذا الناس كلهم فى ثيابى

وهذا الشعور نفسه يتسرب إلى الياس فرحات فيقول من قصيدته " يانجمة الليل " موضحا فى مباشرة نثرية أسباب بعده عن المدينة وحنينه إلى الغاب :

أحن الى الغاب حيث الشرور هنالك ميزاتها خامده
أحن الى حيث لا يجلس الغدر قرب الوفا مائده
أحن الى حيث لا المنكرات تعيش ولا الأعين الحاسده (٢)

وتجسم ذلك الشعور نفسه عند القروى فى قصيدته " الربيع الأخير " (٣) وجبران يصور فى مواكبه قيم المدينة الزائفة ويجد الحياة المثلى فى الغاب ففيه المساواة والعدل والحب والحرية

---

(١) أبو ماضى الجداول ص ٣٢ .
(٢) ديوان فرحات ص ١٦ .
(٣) ديوان القروى ص ٨٥٢ .

، لكنه فى النهاية يقول والمدينة تضغط عليه :

العيش فى الغاب والأيام لو نظمت ... فى قبضتى لغدت فى الغاب تنتشر
لكن هو الدهر فى نفسى له ارب ... فكلما رمت غابا راح يعتذر
والمقاديـر سبل لا تغيرها ... والناس فى عجزهم عن قصدهم قصروا

ويقول " شفيق معلوف " على لسان حبيبته " التى أخذت تبحث عنه فى الحقول :

سلمت للريح شعرى ... والفراشات كتفى
من فرط سيرى أدمى ... رجلى طول التحفى
دربى اليك طويل ... قطعته بالتخفى (١)

وهو يصفها فيشتق لها من الحقل كل مايدخل عليها السعادة ويصفها فى رقة صادقة :

أزاهر الضفة أترابها ... عذراء كالزنبق فى طهرها
قد مهدت متكئا لينا ... من عشب الحقل ومن شعرها
لو الندى رش أزاهيره ... ما ميز البرعم من ثغرها
نامت وقد حامت عليها المنى ... واستسلمت هانئة للرؤى
وانطبقت شباك أهدابها ... تصون فى أجفانها اللؤلؤا (٢)

والمهجريون فى أغلبهم يحنون إلى الحياة فى أكناف الطبيعة بالقرب من مشاهدها الحبيبة حياة فطرية بسيطة تحيا من خلالها فضائل النفس وتتمجد المثل العليا وتتخلص من شوائب المدينة وما تقترفه فى حق الإنسان روحيا واجتماعيا من آثام " وفى هذا هجاء للحضارة وهجاء للمجتمع نجد مشابهه عند كثيرمن الرومانتيكيين الأوروبيين منذ أن ابتدأها روسو دعوة حارة إلى نبذ قيود المدينة والعودة إلى الحياة الصادقة الحرة فى ظلال الطبيعة . (٣) ولكن هذا النفور من المدينة وهجاء المجتمع الحضارى لم يعم مشاعر هؤلاء الأدباء عن التعاطف مع الإنسان ومآسيه والتصاقه بهم فهم قد عرفوا للإنسان قدره - وأشعارهم الإنسانية ومقالاتهم الاجتماعية وقصصهم ذات الطابع الاجتماعى تظل شاهدة على صدق الحقيقة السابقة .

---

(١) شفيق معلوف : مستائر الهودج ص ٩٩ .
(٢) السابق ص ١١٣ - ١١٤ .
(٣) د / محمد غنيمى هلال : الرومانتيكية ص ٩٢ .

الطبيعة الحية : إيقاع جديد فى التجربة التأملية

للطبيعة الحية دور لا يستهان به فى شعر الطبيعة وأدبها فى المهجر فلم يقف تجاوبهم الشعورى وتعاطفهم الروحى واحساسهم العميق عند الزهر الناضر والأرج الضائع والجماد الناطق . وتبرج الطبيعة فى الربيع ، وتجهمها فى الخريف والشتاء ، بل عاشو كذلك بقلوبهم ومشاعرهم مع طيورها وحشراتها وحيواناتها . عاطفة بعاطفة واحساساً بإحساس ، فهم مع الفراشة الهائمة والنحلة الحائمة ، والدودة الواهنة، والنسر الشامخ ، والحمامة الوديعة ، فى تعاطف ومودة ، وألفة وامتزاج . (١)

فقد تغنى " أبو ماضى " بالبلبل " الفيلسوف المجنح . (٢) وأجرى على لسانه أروع الشعر وأصدقه وقال له : طوباك أنك لا تفكر فى غد : بدء الكآبة أن تفكر فى غد وأثارت أشجانه الفراشة المحتضرة . (٣) فهو يبكى معها ، ويتألم لها بعد أن ولى الربيع ومضى الصيف وأجدب حقلها المرع . ويخاطب رياح الخريف العاتية التى تعصف بالفراشة الرقيقة ويرى فى ذلك بغيا وعدوانا ويتوعدها بعقاب الله لها فيقول :

فيارياح الخريف العاتيات كفى ... عصفا فقد كثرت فى الأرض قتلاك
كيف اعتذارك ان قال الإله غدا ... هل الفراشة كانت من ضحاياك؟
يانغمة تتلاشى كلما بعدت ... ان غبت عن مسمعى ما غاب مغناك
ماأقدر الله أن يحييك ثانية ... مع الربيع كما من قبل سواك

ويبث أبو ماضى كذلك عظاته من خلال . الكنار الصامت .(٤) والضفادع والنجوم فيقول على لسان الضفادع التى يرمز بها إلى الشعوب المقهورة :

نحن لو لم نقهر الشهب التى ... هاجمتنا لأذاقتنا الحتوم
وأقامت بعدنا فى أرضنا ... فى نعيم لم نجده فى الغيوم
أيها التاريخ سجل إننا ... أمة قد غلبت حتى النجوم

* *

(١) د / حسن جاد : الأدب العربى فى المهجر ص ٢٥٣ .
(٢) أبو ماضى الخمائل : ص ٣٣ .
(٣) السابق ص ٤٠ .
(٤) أبو ماضى الجداول ص ١٥ .

ورأينا أبا ماضى يطرق بابا جديدا فى الطبيعة الحية هو وأسعد رستم ونسيب عريضه فهم يصفون كلابهم ويرثونهم فى أسلوب ساخر فكه ممتزج بالتأمل . وهذا الاتجاه مجهول فى أدب المهجر وقد نوّه به " جورج ديمترى سليم فى كتابه " أبو ماضى دراسات عنه وعن أشعاره المجهولة (ص ١٥١ - ١٥٩) " .

فنسيب عريضه " يرثى كلبته المسماه " ففى " ويصفها فى حنو ورفق قائلا .

عضها الدهر بعد ماعفت النا ... س وقامت بحفظ حق الحجاب
رحمة اللحم والعظام عليها ... وصلاة الصحون والأكواب
فارقتها وطالما لحستها ... وكستها غلالة من لعاب
فى زوايا العينين منها بريق ... غامض مثل شعلة فى الضباب

ثم يقول :

يا " ففى " قد حرمت قبرا ولكن ... ستعودين مثلنا للتراب
وثرى الناس ليس أفضل جنسا ... من تراب الكلاب عند السحاب
فسقتك الدموع منى وروت ... ك عيون السحاب بالتسكاب

ويصف كلبه فى قصيدته " حكاية " وقد سماه " غرا " فيقول ولا يخلو وصفه من دعابة طريفة ، وفلسفة عابرة :

ترعرع الكلب " غر " ... فصار أعظم شرا
يعوى اذا الناس ناموا ... فيسمع الناس نكرا
وينبح البدر ليلا ... وينبح الشمس ظهرا
وكلما مر سار ... أو هبت الريح هرا
ويتبع الضيف حتى ... اذا استقر استقرا

ويترك العظم ملقى ... ويسرق الخبز جهرا
فروع النشء حتى ... ما تطلب الدار ذعرا
وتفُر الطير حتى ... ما تألف الطير وكرا
فأقبل الحى يشكو ... فقلت ياقوم صبرا
لو كنت أكسب أجرا ... أو كنت أحرز فخرا
خنقت بالحبل " نمرا " ... لكن للكلب " عمرا "

ويصف أسعد رستم :

مشهدا أبصر فيه مركبات تجرها جياد تجارى المركبات قائلا .

فأبصر انثى بينهن وكلبها ... بجانبها يهنا وينعم بالا
تقبله طورا وطورا تضمه ... إليها بشوق يمنة وشمالا

* *

ففكر هذا فى تعاسة حاله ... وأدرك أن الكلب أحسن حالا
فعاد على أعتابه وهو لاعن ... زمانا غدت فيه الكلاب رجالا

وله قصيدتان فى هذا الموضوع هما " هو يسبح وهى تنبح ، وذنوب وأذناب " والأولى ترمز إلى السفلة من الناس والحاقدين الذين لاهم لهم إلا إيذاء الغير حنقا وغيظا والثانية : تصف نكران الجميل وعدم الوفاء . ويقول الشاعر مجسما وفاء الكلاب "

أرى أن هز ذيول الكلاب ... لأصدق من هز أيدى البشر

وفى قصيدة " بعنوان " مشهد صيد " (١) يصف شفيق معلوف كلبه وهو يتهيأ لصيد فريسته وفى وصفه دقه بالغة : وتصوير صادق حتى كأنك تشهد المنظر ولا تقرؤه أو تسمعه

تشمم كلب الصيد طيرا فأبرزت ... نواجذه نصلا وأظفاره حدى
وساف خبايا العشب سما بمخطم ... تنسم خلف العشب ريحابها اهتدى
كأن له عينا على أنفه ترى ... خلال مهب الريح صيدا تلبذا
نضى ذنبا صلب القناة مصوبا ... وشال برجل عاقفا بعد هايدا
وحملق لم يطرف بعينيه طارف ... يلوك شجى فى حلقه متترددا
ومال باحدى مقلتيه يهيب بى ... كعبد يمنى بالغنيمة سيدا

وإلياس فرحات " يرى فى النحلة رمزا للسعادة بينما هو يذوق الحرمان . لأن جناحها العجيب سر سعادتها فهى تجمع العسل من الحقل بامتصاصها الأزهار ولا رقيب أو عاذل . وهو محروم من زهرته البشرية الواحدة فيقول موضحا العلاقة ما بينه وبينها هى مثلى تعشق

(١) شفيق معلوف : لكل زهرة عبير ص ٤٦ – ٤٩ .

الورد النضير انما ليس عليها رقباء

زهـــرتـــى فـــى الـــروض يابنت القفيـــر ... فـــاقـــت الأزهـــــار حســـنـــا ورواء
انهـــم قـــد حرمـــو فيـــهـــا فـــكـــــاد ... ناظـــرى يحـــرم أنـــوار الصبـــاح
وهـــى لـــى واحـــدة دون ازديـــــاد ... ولـــك الحقـــل بمـــا فيـــه مبـــاح (١)

"ومحبوب الشرتونى" يحزن على حمامته الضائعة التى افتقدها بعد شقائه من مرضه ويراها تجسيما لمعانى الوفاء والطهارة حيث يبصر فيها رسول السماء ويرى فيها الشاعر المطل من العالم الأوسع فيقول : -

أنابـــك خطـــب فـــلـــم تـــرجـــعـــى ... أم الطيـــر تنبـــو عـــن المـــرتـــع
هـــو الـــفـــجـــر عـــوّدنى أن أراك ... هنـــاك عـلـــى الحـــائـــط الأرفـــع
لقد كـنـت ذاك الأنـيـس الأحـــب ... اذا مـــا طفـــرت مـــن المـخـــدع
فكنـــت أرى فيـــك رمـــزا الوفـــاء ... ورمـز الطهـــارة فـــى المنـــزع
وأبـصـــر فيـك رسـول السمـــاء ... يحـدث عـــن قـــدرة المـبـــدع
كـأنـــك فـــى أوجـاعـهـا شاعـــر ... أطـــل علـــى العالـــم الأوســـع
إذا كنـــت فـــى قيـــد هـــذى الحيـــاة ... تعالـــى إلـــى وعيشـــى معـــى

وللقروى قصيدة "بعنوان الحمامة الشفيعة" (٢) ويرمز بها للوصال بين الأحبة ، والعصفور تحدث عنه "رياض المعلوف" فى كتابه "صور قروية" فى ثلاث مقالات هى "العصفور الدورى" "العصفور الشويكى ، الكنارى" . (٣)

كما استخلصت من استقرائى لقصائد رياض المعلوف فى العصفور بأنه يربطه بالحب دائما فهو يذكره بحبيبته وهو يهجره ، وهو تارة أعمى وقصائده التالية تمثل هذا الاتجاه رقصة العصفور / ١٥ ، بالله يا عصفور ذكرنا ، الحسناء والبلبل .

وتحدث عنه القروى فى عديد من قصائده في ديوانه . مثل قصيدة "البلبل الساكت / ٦٦ وقصيدة "طيور البحر" / ٢٤٣ ، والعصفور / ٢٩٣ .

---

(١) ديوان فرحات ص ٥٢ .
(٢) ديوان القروى جـ١ ص ٢١٧ .
(٣) درياض المعلوف : صورة قروية من ص ٦٩ – ٧٣ .

وفى قصيدة " العصفور " يربط بين غربة العصفور وغربته عن وطنه فيقول :

هـــل أنـت ياعصفـور مثلـى غريـب ... هـــل لك مثلـى إخـوة فـــى الوطـــن
هـــل أنـت مثلـى هاجـس بالحبيـب ... مـــن ذا الـــذى تهـــواه ياطيـر مـــن ؟

* *

كأنمـــا أنـت بـصـــدر القفـــص ... مصفـــق الجـانـــح لا تستـــريح
طيـــر ذبـيـح فى ضلوعـى رقـــص ... ومـــا انتهـى بعـد عذاب الذبيـــح (١)

* *

وقصيدة " بين البقر والبشر " للقروى من القصائد العميقة التى قارن فيها الشاعر بين حياة البقر الهادئة المنعمة برغم مافيها من قسوة الطبيعة وبين حياة البشر الملأى بالمصائب المتمثلة فى انتهاك العرض ، والفقر ، والحسد ، وفقد الإحساس والذل وقد نوه " ميخائيل نعيمه بهذه القصيدة فى كتاب " الغربال " واعتبرها من عيون القصائد عند القروى . وذلك لما فيها من وعى تام وإحساس مرهف لما يجرى حوله من أحداث وخبرة بالنفس البشرية ، والعلاقات الممزقة بين البشر .

يقول القروى :

طـوبـــاك سارحـه فـى القفر طوبـــاك ... إن كنـت أحسـد مخلـوقـــا فإيـــاك

* *

الـزهـــر مثلك فـى الآفـــاق تنتشـــر ... تغشـــى مـروج العـــلا والليـل معتكـــر
تالله كـــم يتمنـــى عيشـك البشـــر ... مـــاذا تخافـيـن فـــى البيـداء يابقـــر
ان كنـــت تخشـين مـــن أنياب فتـــاك ... طوبـاك فالجلـد غير العرض طوبـــاك (٢)

* *

ويدمى القيد مشاعر " رشيد أيوب " ويرسف فى أغلال القهر الاجتماعى فيصور شموخ النسر . وانطلاقه فى ملكه الضخم ، طليقا كالنسيم ويقابل بين حريته وبين قيوده هو فيقول :

هـــات حـدثنـا بآيـــات الطيـــور ... أيـهـــــا الـسـلـطـــــان
وبمـــا قـــد كـان فـى ماضـى العصـور ... مـــــن عـظـيـــم الشـــأن

* *

(١) ديوان القروى جـ١ : ص ٢٩٣ .
(٢) ديوان القروى ص ٢٨٧ .

ملك الأطيار بلغت المنى ... في حمى مأمون
فكلانا طائر لكن أنا ... طائر مسجون
ماله عن مذهب الناس غنى ... قلبه محزون

* *

وإلياس فرحات " في قصيدته " احتجاج السعادين على داروين " يهجو المجتمع الإنسانى هجاءا مرا . ويفضل مجتمع القرود عليه . لما يتمتع به عالم القرود من بحبوحة المساواة والعدالة ، وعدم اتخاذه من الملل والنحل سبيلا للتمزق والفرقة والحروب .

ويعقب على هذه القصيدة د / أنس داود قائلا . وواضح أن ما يهدف إليه الشاعر هو أن ينبه المجتمع الإنسانى إلى علله وأدوائه . ويبحث عن العلاج فهذا الهجاء اللاذع للإنسانية لم يكن مبعثه إلا الحب والرغبة فى الوصول إلى عالم أمثل . (١) وهو بهذا يحاول الرد على الأستاذ / عيسى الناعورى الذى قال عن القصيدة وعنوان هذه القصيدة يدل على فكرتها ففيها تهكم بنظرية النشوء والارتقاء الداروينية التى تقول إن الإنسان منحدر من سلالة القرود. (٢)

وأرى أن الشاعرعمد إلى إظهار الاتجاهين ، تفنيد مزاعم داروين والرد عليه وهجاء المجتمع الإنسانى حتى يتنبه إلى أمراضه فيداويها من خلال أصوات القرود التى تتهكم على الإنسان وتظهر محاسن أبناجنسها (القرود) .. فعلى لسان أحد أفراد عائلتهم تأتى هذه الأوصاف .

يكفى السعادين فخرا أنها عرفت ... معنى السعادة عفوا دون تلقين
وأنها تجهل الكذب الذى أخذت ... منه الحكومات أركان الدواوين
لا تعرف الدين فى غير الاخاء ولا ... تجنى على الخلق باسم الله والدين
الغاب تجمعها من كل طائفة ... تحيا الصعاليك فيها كالأساطين (٣)

.... وهناك الإحساس بالطبيعة الريفية ووصف مفاتنها ومظاهرها وذكرياتها . وما يرتبط بها من هوى وقيم ، والشاعران الرائدان فى هذا المجال هما الشاعر " رياض المعلوف " والشاعر فؤاد الخشن " .. وبرغم أن الشاعر القروى سمى بهذا الاسم أو أطلق عليه هذا اللقب

(١) د / أنس داود : الطبيعة فى شعر المهجر ص ٦١ .
(٢) عيسى الناعورى : أدب المهجر ص ١٨٢ .
(٣) ديوان فرحات ص ٩٤ .

لأن معجمه غالبا ما يشتقه من معجم قريته لكنه لم يول القرية اهتمامه الوجداني قدر ما أولاها رياض المعلوف وفؤاد الخشن .

فرياض في كتابيه " صور قروية ، وريفيات " يضع القرية بين يدى القارىء عارية مفصلة واضحة .. وذلك اتجاه جديد في أدب المهجر وقد تحدثت عن ذلك تفصيليا في الباب الثاني من هذه الدراسة في " مبحث " النزعة الاجتماعية في أدب رياض المعلوف . (١)

وقد أجابني عن سؤال وجهته إليه بخصوص هذا الاتجاه وكان السؤال هو ما المعاني الإنسانية والتجارب التي علمتك إياها طبيعة بلادك ؟.

فقال :

إنه رغم أسفاري حول الشرق والغرب وإقامتي في المدن العظيمة كنيويورك والريوده جانيرو والبرازيل ، وباريس عدت بعد هجرتي إلى بلدتي الجبلية زحلة " فوجدتها أعظم من كل هذه العواصم على ضيق رقعتها وبساطة العيش فيها فوصفت معالمها ومنتزهاتها ووديانها الساحر .

والقناعة كنز لا يفنى أليس كذلك يا أخي صابر ؟ (٢)

* *

وأما الشاعر " فؤاد الخشن " فيقول عنه " جورج صيدح " قيثارة الريف في المهاجر الأمريكية . والناي الريفي الذي عزف للصبايا الحسان . حاملات الجرار والسلال وتغزل في صحراء الشويفات وتحرق شوقا لغابة الزيتون " (٣) .

والشاعر في ديوانه " سنابل حزيران " يخصص جزءا لمعزوفاته الريفية يتحدث فيه عن ذكرياته الريفية ، وعن الأصداء القديمة التي تأتيه من الريف ، وعن العزال الصغير في الشويفات وعن صوت الشجرة . وقصيدته " ذكريات ريفية . تعد من المطولات المهجرية التي لم تأخذ حقها من الدراسة . وهي من الشعر المنغم الذي يعتمد على التفعيلة ولا يفقد الوزن الشعري المحبب ويذكرنا بمقطوعات نسيب عريضه وشفيق معلوف وهو يتجه إلى الطبيعة قائلا :

(١) راجع ذلك إن شئت : الباب الثاني : الفصل الأول .
(٢) من رسالة خاصة بعث بها الشاعر إلى في ١ من يوليه سنه ١٩٧٩ م .
(٣) جورج صيدح : أدبنا وأدباؤنا في المهاجر الأمريكية ص ٦٩٧ .

صور الماضى تحوم . . فوق هدبى
ان فى هذى الرسوم . . بعض قلبى
احفظيها
نمقيها
لونيها
واعرضيها
ياسواقى

ويكرر " كلمة " أرنى " تسع مرات ويناجى وجه السواقى أن يريه طفولته ومشاهد نيسان والأغنام والقبو العتيق والبدر الموء تلق والليالى المنغمة بالعود . وتكرار كلمة أرنى يومىء إلى انفعاله الشديد ولهفته إلى زمان الصفاء ومكان الجمال .. ويكرر كلمة " أين " تسع عشرة مرة ليشركنا معه فى تشوقه " فنحس بجمرات الحب المتقدة فى قلبه لوطنه فى الريف " الشويفات " وليس هناك عاطفة أقوى وأخلص من هذه العاطفة الباحثة فى اللاشعور عن الذكريات الندية المعطرة ببراءة الريف العذب . إنه صوت طاهر فريد غنى للريف فى عمق ، ونايه من أصدق النايات المهجرية (١) .

(١) أنظر ديوان سنابل حزيران من ٧٩ – ٨٦ " فؤاد الخشن " .